دكتور تشارلس وطسن

التربية بعد الحرب

الخميس ٣ يونيه سنة ١٩٤٣

التربية بعد الحرب

لجناب دكتور تشارلس وطسن

رئيس الجامعة الأمريكية بالقاهرة

ترجمة الخطاب

الذى ألقى فى الحفلة السنوية لتوزيع الإجازات العلمية

للجامعة الأمريكية بالقاهرة

يوم الخميس ٣ يونيه سنة ١٩٤٣

أرى لزاماً عليّ، وقد ظهرت لأول مرة في حفل عام، بعد أن منّ الله عليّ بنعمة الشفاء من مرض كاد يعزّ شفاؤه، أن أنتهز هذه الفرصة: فأبتهل الى الله شكراً على ما أولانيه من صحة، وأسبغ عليّ من عافية.

وأتشرف في هذا المقام، بأن أعبر لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، عن عميق تأثري لتعطفه بالسؤال عني، في أشد مراحل المرض خطورة، وأن أرفع لجلالته آيات الشكر وفروض الثناء؟

تشارلس وطسون

التربية بعد الحرب

سيداتي وسادتي

في الميثاق الاطلنطي فتح الرئيس روزفلت ومستر تشرشل باب البحث واسعاً، في موضوع ظلّ مغلقاً فترة من الزمن ، خشية أن يكون الكلام فيه غير ملائم لكسب الحرب . ألا وهو العالم بعد المعركة الدائرة رحاها ، وماذا تنوى الأمم المتحدة حياله . غير انه قد رؤى أخيراً أن في سكوت الأمم المتحدة إزاء موضوع كهذا عظيم الشأن، وبالا عليها. فقد قيل إنها لم تبد فيه رأياً، في حين أن المانيا بسطت فيه خطتها ، فجاء الميثاق الاطلنطي هادماً لهذا النقد من أساسه ، بما وضعه من المبادىء التي ينبغي اتباعها بعد الحرب . والمبادىء — سيداتي ، سادتي — أخطر شأناً من الآراء والخطط . فاذا ماوضحت في الأذهان ، وسيطر جوهرها على العقول والأفهام، أتيح للأمم المتحدة أن ترجىء البحث

فى ماعدا ذلك من الحواشى والتفاصيل ، إلى أن نلوح فى الأفق الفرصة السانحة .

وهذا ماحدا بنا إلى اتخاذ موضوع « التربية بعد الحرب » عنواناً لهذا الخطاب . فما أعظم أن نبسط لشباب العصر المبادىء التى نرى أن يشاد على دعامتها العالم الجديد ، كما نوده أن يكون ! ! ! ونحن المشتغلين بالتربية ؛ إذا ماحاولنا أن نبث فى نفوس الشباب ، من فتيان هذا العصر وفتياته ، آراء العالم العتيق التى نفكر فى نبذها ؛ كان مثلنا مثل من يجهز جنديا حديثاً ، ببندقية تطلق بالزناد والصوان ، بدلا من مدفع «برن» . فلنعالج إذاً بإيجاز بعض العناصر التى نرى أن تشملها التربية ، فى هذه الفترة التاريخية التى يوشك أن يمر بها عالمنا الجديد :—

١ — الأمر الأول الذى تتطلبه التربية الجديدة ، هو أن تكون عالمية ، مظهراً ووجهة نظر . فلعمرى هذا هو التراث العظيم الذى ستتمخض عنه هذه الحرب . فالأول

مرة فى التاريخ ، اكتسحت العاصفة العالم بأسره. لقد أطلقنا على الحرب الماضية اسم العالمية ، بيد انه بالرغم من اتساع نطاقها ، فأنها لا تقاس شيئاً بهذه المعركة الدامية التى احتوت كل قارة من قارات الكرة الأرضية ، فلا غرابة إذا اتجه التفكير العام مضطراً ، نحو العالمية ، فاتخذها أداة للتعبير .

ولا مناص من الاعتراف بأن تفكيرنا وتربيتنا قبل اليوم ، كان يغلب عليهما طابع القومية المتطرفة . فقد كنا نتساءل عن مصير هذه القومية فى أميركا ، وما الذى تفوز به بريطانيا منها ، وما الذى يؤول إلى مصر من ورائها . أما اليوم فلم يعد هذا التفكير القومى المسرف صالحاً للجيل المستقبل ، أو على الأقل للطبقات المستنيرة من قادة الأمم. نعم لا سبيل إلى الإنكار بأن الوطنية لابدّ منها ، وأن الولاء القومى حتم علينا إحلاله المكان اللائق به من نفوسنا ، ولكن هذا وحده لا يكفى . ينبغى لنا بجانب هذا أن نكون أوسع أفقاً ، وأن يصبح اتجاهنا عالمياً . فاذا لم ترسم الديمقراطيات للعالم الخطط ، ففى وسع الحكومات التى تدين بالدكتاتورية

والتوسع الاستعماري الحربي ، أن تفعل ذلك ، كما يفاخر بذلك هتلر وكما تحلم به اليابان .

وليس ثمة من شك في أن غرس مبادىء التفكير العالمي في نفوس الناشئة ليس من الهنات الهينات ، ولكنه غير مستحيل . فدراسة الجغرافيا والتاريخ على الأخص ، والإلمام باللغات الأجنبية وآدابها ، والأخذ بناصية العلوم الاجتماعية ، كلها وسائل ناجعة لبلوغ الهدف . وإنا في هذا المعهد لنسعى لتحقيق هذه الأغراض بهذه الوسائل جميعها ، مضافاً إليها وسيلة أخرى ، وهي توطيد أواصر الإخاء والصداقة بين التلاميذ وزملائهم من مختلف الجنسيات والأمم ، وقد بلغ عددهم في معهدنا اثنتين وعشرين . ولسنا بذلك نخشى أن يبيت الطالب المصري أقل مصرية . ولا أن يمسي الأميركي أقل أميركية ، ولكننا بهذا النوع من التربية ، نطمح أن ننشىء طائفة من القادة والزعماء ، الذين يدركون الدور الذي تمثله مصر أو أميركا على مسرح عالمي ، يشمل كل أمة تحت الشمس . وقد لا يتسع الخيال لطلابنا اتساعا يصور

لهم هذه الفكرة العالمية ، كما يفهمها تشرشل وروزفلت ؛ ولكن يتاح لهم على الأقل أن ينأوا عن ذلك المحيط الضيق ، الذي تحده مبادىء القومية المسرفة ، والعنصرية المتطرفة ، كما يفهمها هتلر وجوبلز .

٢ — والأمر الثاني الذي تتطلبه الحياة الجديدة بعد الحرب ، والذي يجب على كل أمة أو شعب يريد أن يأخذ مكانه اللائق به بين الأمم والشعوب ، هو الانتفاع بثمرات العلم الحديث . فقد كان من مظاهر هذه الحرب ، أن أبرزت أمجاد العلم ، وما يحتمل أن يجيء من ورائه من جم الفوائد . ويكاد يخيل إلينا أن قواد الحرب ، ما عليهم إلا أن يوصوا العلماء باعدادهم بكل شيء ، بلا قيد ولا تحديد ، فيلبي هؤلاء الطلب وكأنهم آذان صاغية . فهذا المطاط الطبيعي ، أنضب معينه ؟ اذاً فهاكم المطاط الصناعي بدلاً منه . وهذه الكينا ، أنفد مقدارها بعد استيلاء اليابان على مصادرها ؟ اذاً فهاكم « الاتابرين » مكانها . وهذه وسائل النقل ، أفي حاجة ماسة إلى مضاعفة السرعة ؟ اذاً

فليكن ما تريد : ولنتناول طعام الإفطار فى أميركا الشمالية ، وطعام الغداء بعد سبع ساعات فى بريطانيا . فكأنى بالعلم ولسان حاله يقول «لبّيك ، اطلب ما تشاء ، تجد ما تريد» . فاذا كان هذا ممكننا فى الشئون الحربية إبان الحرب ، فلم لا يمكن أن يكون ، وينبغى أن يكون ، فى الشئون الاقتصادية ، فى زمن السلم وفى كل اقليم وبلد؟ وما هى أشد البلدان رخاءً وتوفيقاً ؟ أليست هى التى طبقت مبادىء العلوم ، حلاً لشتى المسائل ، وسخرتها استثماراً لمصادر ثرواتها ؟ ولعل من الفائدة أن أضرب لكم المثال الواقعى الآتى : —

فى إحدى ولايات أميركا المتحدة الجنوبية ، هوى مستوى الحياة إلى أحط أعماق الفاقة ، وآلت حالة السكان إلى درجة من المرض والجهل ، تدعو لشدة الأسف . وقد عزيت هذه الحالة إلى طبيعة الأرض ، فقد قيل إنها كانت « بورا » وكان السكان جرياً على تقاليدهم القديمة ، يكتفون بزراعتها قطناً ويقتصرون على ذلك ، وكانت أرباحهم من

المحصول فى هبوط مستمر عاماً بعد عام . على أن أستاذا للكيمياء فى تلك الولاية ، جاء بفكرة عملية جالت بخاطره ، فأخرجها إلى حيز العمل . فقد وجد أن التربة التى يسوء فيها محصول القطن ، يجود فيها محصول الفول السودانى ، وقد أدت به التجارب العلمية إلى كشف أكثر من ثلاثمائة مركب غذائى ، يمكن استخراجه من هذا المحصول ، منها زبدة الفول السودانى ، ودقيقه ، وأصناف شتى من الزيوت والاسماد الكيميائية ، وأصدر كتيباً وزعه على نساء المزارعين جعل عنوانه « مائة طريقة وخمس فى إعداد زبدة المائدة » .

ثم عكف على دراسة النباتات والحشائش البرية التى تكثر فى تلك الولاية ، وأقام الدليل على أنه يمكن استخراج مائة صنف منها ، مثال ذلك نوع من بُنّ الشيكوريا ، ومواد غذائية تشبه فى طعمها التفاح ، والاسبراجوس ، وغيرها من المواد التى تصلح للكثير من ألوان الأطعمة الشهية . وواصل دراسته حتى استطاع استخراج ألوان الطلاء من

طينة الأرض وتربتها . وبالإيجاز كسّر أصفاد القطن التقليدية التي طالما قيد بها السكان ، وسما بالأهلين إلى ذروة عالية من الرخاء والصحة وراحة البال .

فإذا كان تطبيق العلم في أرض مجدبة يأتي بمثل هذه المعجزات ، أفليس من المستطاع أن نأتي بأضعاف هذه النتائج في بلاد كمصر ، اشتهرت بخصب تربتها ؟

مصر بلاد قضت عليها التقاليد ، أن يقتصر دخلها على مصدر واحد ، وهو الزراعة ، وتكاد تقتصر الزراعة في هذا المصدر الواحد الضيق على القطن . ولست أعنى أن أحط من قيمة الرخاء التاريخي الذي تمتعت به مصر ، عن طريق ذلك الدخل ، الذي ظلّ وفيًّا لها طيلة الأعوام السالفة ، رغم الحروب ، ورغم كل تحذير ضد الاعتماد على محصول واحد . وإنما جل ما يتجه إليه تفكيري ، هو الرغبة في مضاعفة ثروة مصر ، والعمل على رفاهيتها ، وذلك بإحلال روح البحث العلمي ، محل التقاليد الجامدة العتيقة ، التي ينوء تحت اعبائها ملايين من الخلق الأميين في الريف .

في مصر منابع ثروة مجهولة ، دفينة فى قوة النيل المائية ، وفى مساقط تلالها ، وفوق ذلك فى موقعها الجغرافى المنقطع النظير ، الذى يجعلها مركزاً تجارياً يتوسط ثلاث قارات عظام . فلِمَ لا يكون لمصر أسطول من بواخر سريعة تحمل الأطعمة المخزونة المثلجة لتوزيع خضرواتها وغيرها من المواد الغذائية على الموانىء البحرية فى أوروبا ؟ هذا لن يتأتى إلا بتسخير البحث العلمى فى الانتفاع بهذه الثروة القومية . ولا يتوافر النجاح المتواصل فى هذا الشأن ، إلا باتصاف الأمة بوجه عام بالعقلية العلمية . ولذا ينبغى أن نتوخى أنجع السبل لتطبع الجيل الحاضر على التفكير العلمى ، وهذا ما نحاول أن نغرسه فى نفوس طلابنا ، بدراسة العلوم الفيزيقية ، والكيميائية ، والأحيائية ، والفلكية . ولسنا نزعم أننا نعد الطلاب للبحث العلمى الفنى ، فليس لدينا من المعدات ما يخولنا القيام بذلك كله ، ولكننا نرمى من وراء الدراسة العلمية ، تزويد الطالب قبل إنهاء الدراسة بتلك الروح التى ينتظر أن

يتشبع بها النشء من دراسة العلوم الطبيعية . بمثل هذه العقلية العلمية ينهض الشباب المصرى ، من رجال ونساء ، بكل حركة تؤول إلى تقدم البلاد والسير بها إلى الأمام .

٣ — والأمر الثالث الذى تتطلبه الحياة الجديدة بعد الحرب ، هو العقلية الاجتماعية (أو التفكير الاجتماعى) . وهذا الأمر لا يحتاج بيانه إلى كبير عناء . فما علينا إلا أن نلقى نظرة على المقترحات والمواد التشريعية ، التى يلمح الجمهور والبرلمان البريطانى فى دراستها ، بعد أن شغلت بها الأذهان ، وأخص بالذكر تلك الوثيقة الخطيرة فى الشئون الاجتماعية ، ألا وهى مشروع بيفردج . وما علينا إلا أن نرجع قليلاً إلى حركة النظام الجديد (New Deal) فى أميركا ، التى تشبه من وجوه شتى مشروع بيفردج ، وما يرجى فيه من العدالة الاجتماعية . فرجل الأعمال فى أميركا الذى كان همه السعى وراء الكسب ، بغض النظر عن مصالح الغير ، والذى كان يتصف بما اصطلح على تسميته « بالفردية العنيفة (rugged individualism) — مثل هذا الرجل قد اضطر الآن إلى

تغيير خطته . ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن الضمير الاجتماعى آخذ فى اليقظة والهيمنة على الشئون العامة . والكلمة الآن فيما يختص بالحياة الجديدة لمصر . فهل يسمح لصاحب الأرض فيها ، الذى كان همه الوحيد أن يستنزف من غلته آخر مليم يستطيع الحصول عليه ، أن يستمر فى خطته ؟

لقد تعاونت الأمم المتحدة على الاشتباك فى هذه الحرب ضد المانيا ، لأن النازية إنما أرادت اكتساح الأمم المغلوبة ، وتسخير هذه الأمم لمنفعتها الخاصة . ونحن نصم عمل ألمانيا هذا بأنه شيطانى ، همجىّ ، ولكن لعمرى أليس أشد منه وحشية ، وشيطانية ، أن تسخّر فئةٌ من الناس فئة أخرى من الأمة الواحدة ، وتنزل بأخوانها فى السلالة والوطن إلى هاوية الفقر والعوز ؟ لقد جاءت هذه الحرب ، وجاءت معها روح جديدة ، ولنسمّها إذا شئتم العقلية الاجتماعية ، أو الضمير الاجتماعى . وسيعاد بناء الحياة فى الأمم المتحدة ببث هذه الروح . فكيف نستطيع أن نساعد مصر على إعادة بنائها ، فيستحيل الترف والتبذير فيها إلى

إغاثة الفقير ، وعلاج المريض ، ويقوم القوى فيها بإنهاض الضعيف بدلاً من استغلال ضعفه ؟ إن هذا المعهد بفضل المواد الاجتماعية ، التى يعنى بها ، وأكثر من ذلك ، فأنه بفضل نواحى النشاط الاجتماعى الذى يقوم على أساس الخدمة العامة — ليسعى لتخريج الناشئة رجالا ونساء ، ممن نتوسم فيهم ، إن شاء الله تعالى ، تولى الزعامة فى بلدان الشرق الأدنى ، ليخففوا من وطأة الأمية ، والمرض ، والفقر ، والعوز ، والبؤس ، لا فى مصر وحدها ، بل فيما عداها من البلدان المجاورة .

٤ — والأمر الرابع الذى تتطلبه الحياة الجديدة بعد الحرب ، لا تقتصر الحاجة فيه على هذه الحياة الجديدة وحدها ، بل هو هو الحاجة الملحة اليوم ، كما كانت بالأمس ، وفى كل عصر من عصور التاريخ ، وفى كل مرحلة من مراحل العمر . وأعنى بذلك أن يتوافر فى كل أمة طائفة من ذوى الشخصيات الممتازة ، والسجايا الكريمة . قلبوا صفحات

التاريخ ، تجدوا أن كل حركة كبرى فى تاريخ البشر . كانت تدور حول محور أفراد بارزين . ففى استقلال أميركا نجد جورج واشنطون ، وفى إلغاء الرق نجد ابراهام لنكولن فى أميركا وولبرفورس فى بريطانيا العظمى ، وفى تحرير إيطاليا نجد غريبالدى . وما يقال عن الحركات الطيبة يقال عن الأثيمة . ففى استعباد إيطاليا نجد موسوليني ، وفى بث البغضاء والقسوة والتقتيل فى القارة الأوروبية ، نجد هتلر .

يتضح من هذا أن جميع الحركات الخطيرة فى تاريخ الإنسانية ، الصالح منها والطالح ، كان قوامها الأفراد . فليكن لنا فى كل أمة شخصيات بارزة قوية ، ولتكن هذه الشخصيات بعون الله ، محمودة الشمائل ، لا وضيعة الخلق . إذ بهذه الشخصيات تنهض الأمم وتزهو ، سواء أكان ذلك فى العلوم أم الآداب ، فى التجارة أم الطب . وفى العصر الجديد ستحتاج مصر إلى هذه الشخصيات ، وهذا ما نصبو إليه فى هذه الجامعة ونعمل له . فليس هذا المعهد مجرد مكتب استعلامات ، ولكنه هيئة لتكوين الخلق . ولعلّ

صغرها هو الذى يجعل الاتصال بين أساتذتها وطلبتها هيناً يسيراً ، مما ينشأ عنه تنمية الخلق وتكوين الشخصية .

وليس تخريج القادة والزعماء ، كل مايجيش بصدرى فى هذا الموضوع . فهناك شخصيات أخرى يصح أن يقال فيها أنها حلية ، تتزين بوجودها الجماعات . ولها أثر يذكر غير الظهور فى الحياة العامة ، وأعنى بها تلك الشخصيات الهادئة الحييّة المتواضعة ، التى تتجلى فى ذويها الثقافة الحقة والسجايا الكريمة ، والمثل العليا التى كان يعرف بها « الجنتلمان » فى القرون الوسطى — أولئك الذين نجد الكياسة واللطف طبيعة فيهم ، لا صناعة يتكلفونها ، وعلى سيمائهم رصانة الفيلسوف . وصفاء روحه ، ونتلمس فى نفوسهم صفة الوقار والتبجيل . وما العالم العظيم الذى نعيش فيه فى نظرهم المتواضع سوى سرّ غامض . وهؤلاء يكونون عادة صادق الإيمان بالله تعالى . وإنا لنجد هذا النوع من الناس فى مصر . أنتم تعرفون بعضهم وأنا أعرف بعضهم . فاذا ما اتفق لنا مقابلتهم ، شعّوا فينا الالهام . وإذا ما قضينا

ساعة معهم، خرجنا من محضرهم أحسن مما كنا. إنا فى حاجة إلى الكثيرين من هؤلاء، والهدف الذى نرمى إليه هو الإكثار من أمثالهم، لأنهم «ملح الأرض».

سيداتى وسادتى:

لقد بسطنا لحضراتكم بعض المثل العليا التى نتمسك بها فى هذا المعهد، والتى نعتقد أنها فى مقدمة ما تفتقر إليه الحياة الجديدة بعد الحرب. وأمامنا فرصة سانحة لاحتمالات عظيمة الشأن، ولسنا نضمن أن يكون العصر القادم خيراً من سابقه، مالم نسع جهدنا لجعله كذلك. ولكن هنالك ما يحمل على الاعتقاد، بأن الأمل فى ذلك عظيم. ومن أقدس واجباتنا أن نرنو أبصارنا إلى هذا الأمل، الذى نرجوه لمصر، والعالم بأسره، فنغرس فى نفوس الشباب التربية الحقة.